

أحاديث رمضان ١٤٢٦ هـ - الفوائد - الدرس (٣٦-٠٤) : للعبد ستر بينه وبين الله - للعبد ستر بينه وبين الناس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-١٠-١١

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

**العبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس فمن هتك هذا الستر هتك الله ستره:**

أيها الأخوة الكرام، مع عدد من فوائد جلييلة للعالم الجليل ابن القيم الجوزية - رحمه الله تعالى - من كتاب الفوائد، إحدى هذه الفوائد: " للعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس ".

الله عز وجل من أسمائه أنه ستار، وقد يظهر الله محاسنك، ويستتر عن الناس عيوبك، فما دمت تحتمي بهذا الستر، وتقدر هذا الستر، وما دمت تخاف أن تسوء العلاقة بينك وبين الله، فالله سبحانه وتعالى بتكريم منه يبقي الستر الذي بينك وبين الناس قائماً، يحفظك، ويسترك، ويخفي عن الناس ما أنت عليه، وهذا من أسماء الله الحسنى.

والمؤمن الصادق له من هذا الاسم نصيب، المؤمن الصادق ليس فضاحاً، بل يستتر على الناس عيوبهم وأخطاءهم.

**لا تستطيع أن تُقبل على الذات الإلهية الكاملة إلا بكمال مشتق منها وهذا هو الكمال الأصيل:**

قال عز وجل:

( وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا (١٨٠) )

( سورة الأعراف )

من معاني هذه الآية: أنك لا تستطيع أن تتقرب إلى الله إلا إذا اشتقت من أسمائه الحسنى أخلاقاً تتعامل بها مع الناس، فإذا كان الله ستيراً ينبغي أن تتخلق أنت بهذا الخلق، فإذا تخلقت بهذا الخلق كان هذا الخلق باباً لك إلى الله، ووسيلة تقبل بها على الله، هذه قاعدة عامة تؤخذ من هذه الآية، الله عز وجل رحيم، فإذا رحمت الخلق تستطيع برحمتك للخلق أن تُقبل على الله الرحيم، فأنت لا تستطيع أن تُقبل على الذات الإلهية الكاملة إلا بكمال مشتق من الذات الإلهية، وهذا الكمال المشتق من الذات الإلهية هو الكمال الأصيل، هي الأخلاق الصحيحة التي لا تتبدل، ولا تتغير، ولا تتأثر.

الأخلاق التي لم يكن مصدرها اتصالاً بالله عز وجل تنهار وتتبدل وتتغير عند أي استفزاز:

لا بد من التنويه هنا إلى أن الإنسان أحياناً بذكائه يعامل الناس معاملة طيبة، هذه الأخلاق التي لم يكن مصدرها اتصالاً بالله عز وجل، ولا صبغة من الله عز وجل، هذه أخلاق الأذكياء، تنهار، وتتبدل، وتتغير عند أي استفزاز، أو عند أي خطر يهدد مصالح الإنسان، ولو وسعنا هذا الموضوع لوجدنا أن العالم الغربي استطاع بطرح قيم رائعة جداً أن يخطف أبصار أهل الأرض، لكن حينما هدبت مصالحه انقلب إلى وحش كاسر، والله سبحانه وتعالى متكفل ألا يغش أحداً بأحد.

فالذي بينه وبين الله ستر حافظ عليه، وقدره، وشكر الله على أن ستره، ما كان الله ليفضح هذا الإنسان في عقر داره.

لكن من هناك الستر الذي بينه وبين الله هناك الله الستر الذي بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس:

**(( اعمل لوجه واحد يكفيك الوجه كلها ))**

[ابن عدي في الكامل والديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

الأمر كله بيد الله، والإنسان مهما يكن ذكياً، وقد أحكم أموره، وقد سدّ كل الثغرات، وقد هياً لكل الاحتمالات، لا يستطيع أن يحمي نفسه من فضيحة، لأن الأمر بيد الله وحده، يؤتى الحذر من مأمّنه:

**(( ولا ينفذ ذا الجد منك الجد ))**

[مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس]

صاحب الحيلة، والذكاء، وقوة الإدراك، صاحب المكر والكياسة، لا يستطيع أن يحول بينه وبين أن يفعل الله معه ما يريد.

من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس:

بالمناسبة:

**(( إن الله إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه ))**

[الحاكم عن ابن عباس]

هذا الكلام يقود إلى التوحيد، من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، وللعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، فمن هناك الستر الذي بينه وبين الله هناك الله الستر الذي بينه وبين الناس، وما دمنا في هذا الموضوع فهناك بعض الأحاديث. حديث يشير إلى أنه:

**((..... ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته ))**

[ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد]

هناك إنسان قناص، همه أن يثير الفضائح، وكل إنسان يدقق في خصوصياته ويفضحه، فعقابه من الله عز وجل أن يفضحه في عقر داره، ولا تستطيع مهما كنت كيساً، وذكياً، وعاقلاً، أن تحول بين الله وبين أن يكشف سترك.

**للعبد رب هو ملاقيه وبيت هو ساكنه:**

فلذلك أيها الأخوة، لن تستطيع أن تتقرب من الله بقربة أبلغ من أن تشتق كمالاً منه، بهذا الكمال الذي تشتقه منه يمكن أن يكون وسيلة لك إلى الله، وهذا فحوى قوله تعالى:

**( وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا )**

هذه فائدة.

للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل الانتقال إليه.

لا بد من توضيح هذه الفائدة بمثل: لو تصورنا أن بلداً فيه نظام إيجارات عجيب، يستطيع مالك البيت أن يطرد المستأجر في أية لحظة، من ليل أو نهار، بل في أية ثانية، ولا يستطيع المستأجر أن يأخذ من أغراضه شيئاً إطلاقاً، وبلا سابق إنذار، وبلا قاعدة، هذا المستأجر له دخل كبير، هل من العقل أن يضع كل دخله في هذا البيت الذي هو مستأجر له، وقد يطرد منه بأية ثانية، وكل شيء اشتراه لهذا البيت يبقى في هذا البيت، حتى متاعه الشخصي؟ هكذا النظام، افترضوا نظام إيجار هكذا، هل من العقل أن تضع كل مالك في هذا البيت؟ لأنه في ثانية واحدة تطرد منه، لكن لك بيت بعيد وهو ملكك، وهو على الهيكل، أليس العقل كل العقل أن تنفق مالك في كسوة ذلك البيت، وفي تأسيس ذلك البيت، وفي إعمار ذلك البيت، لأن مصيرك إليه.

هذا هو الذي أتمنى أن يكون واضحاً، هذه الدنيا كل شيء تملكه فيها منوط بدقات قلبك، منوط بشرايينك، منوط بسيولة دمك، منوط بنمو خلاياك، لو أن هذه الخلايا نمت نمواً عشوائياً انتهى كل شيء، أصبح الإنسان خبيراً ونعوة، لو أن هذه الشرايين ضاقت دخل الإنسان في متاعب لا حصر لها، لو أن هذا الدم تجمد، لو أن هذا القلب توقف عن النبض، فهذه الدنيا كل شيء تملكه فيها ينتهي بأحد هذه الحالات، كان رجلاً فصار خبيراً، والله عز وجل قال:

**( وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ )**

( سورة المؤمنون الآية: ٤٤ )

إذاً أن تضع كل إمكاناتك، وكل مكتسباتك في هذه الدنيا الزائلة، من يفعل هذا يكون على قدر لا حدود له من الغباء، لذلك:

**(( الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى ))**

[أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرک عن شداد بن أوس]

فللعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، وأن يعمر بيته قبل الانتقال إليه.

الآن في الدنيا، بدائرة معينة، شاعت فكرة أن مدير هذه الدائرة سوف ينتقل إلى مكان آخر، وسوف يأتي فلان مكانه، بعض الموظفين الأذكياء يقيمون علاقة طيبة قبل أن يكونوا تحت إمرة هذا الجديد، الآية الكريمة:

**(( إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) ))**

(سورة الغاشية)

هذا الذي يعادي ربه، هذا الذي يقف في خندق معادٍ للحق، هذا الذي يتفقت من منهج الله عز وجل، ما موقفه حينما يلقي الله عز وجل؟ ورد في بعض الآثار:

" أن عبدي قد أعطيتك مالا فماذا صنعت فيه؟ قال يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، قال ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم.

" ويقول لعبد آخر: عبدي أعطيتك مالا فماذا صنعت فيه؟ قال يا ربي أنفقت على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظ وأنت أرحم الراحمين، فقال الله عز وجل أنا الحافظ لأولادك من بعدك".

[ورد في الأثر]

على الإنسان أن يهيب جواباً لله عن كل عمل يقوم به لأن الله عز وجل مطلع على نواياه:

أخواننا الكرام، في الحياة عبر كثيرة جداً، سألوها مرة طالباً نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية: بمَ نلت هذا التفوق؟ فأجاب إجابة رائعة جداً، قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر ذهني ولا ساعة في العام الدراسي.

ويقاس على ذلك أن المؤمن كلما همَّ بعمل ماذا أجيب الله عن هذا العمل؟ همَّ بتطبيق زوجته، يا ترى معي الحق بتطبيقها؟ همَّ بفض هذه الشركة، يا ترى هل هو مصيب في هذا أم مخطئ؟ دائماً وأبداً المؤمن يتصور أن الله يسأله، فماذا يكون جوابه لله عز وجل؟ وأنا أحياناً كثيرة حينما استفتى

في موضوع الوصية، أقول له: معك جواب الله ؟ قد يكون له بنت فاتها قطار الزواج، وبناته الأخيرات متزوجات، فإذا أعطى هذه البنت شيئاً من ماله في حياته ليضمن لها كرامتها بعد موته فلا مانع، معك جواب الله عز وجل، أحياناً إنسان يحابي زوجته الثانية، فيكتب لأولادها ما لا يكتبه لأولاد الأولى.

**(( إن الرجل ليعمل، أو المرأة، بطاعة الله تعالى ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار ))**

[أبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

العبرة أيها الأخوة قبل أن تقطع، قبل أن تصل، قبل أن تعطي، قبل أن تأخذ، قبل أن تغضب، قبل أن ترضى، قبل أن تفعل شيئاً هيئ الله جواباً، هيئ الله جواباً، وافعل، لأن الله عز وجل مطلع على نواياك، وهذا معنى الحديث النبوي الشريف:

**(( إذا لم تستح فاصنع ما شئت ))**

[البخاري عن ابن مسعود]

من معاني هذا الحديث: إذا لم تستح من الله بهذا العمل امض فيه، ولا تعبأ بأحد، أحياناً يكون هناك عمل مرفوض اجتماعياً، لكنه مقبول عند الله عز وجل، وأنت مغطى عند الله، فإذا كنت مغطى عند الله، ولا تستحي من الله من هذا العمل فامض به، ولا تعبأ بأحد.

### إضاعة الوقت أشد من الموت:

آخر فائدة: إضاعة الوقت أشد من الموت، كيف ؟ قال: لأن إضاعة الوقت يقطعك عن الله والدار الآخرة، بينما الموت يقطعك عن الدنيا وأهلها، والفرق كبير جداً، إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن الموت يقطعك عن الدنيا، وهي زائلة في الأساس، لكن إضاعة الوقت يقطعك عن الآخرة. بالمناسبة أيها الأخوة، مركب في أعماق أعماقنا أن الوقت أثمن من المال، الدليل: لو أن الإنسان لا سمح الله أصابه مرض عضال، وتقتضي أجرة العملية أن يبيع بيته، لا يتردد ثانية واحدة في بيع بيته الذي لا يملك غيره، من أجل إجراء عملية يتوهم أنها تمد في حياته بضع سنوات. الآن لو أن إنسان أمسك خمسمئة ألف، وأحرقها بيده، أمام ملاء، ماذا يحكم عليه ؟ بأنه فاقد العقل، لأنه أتلف ماله، إذا إتلاف المال يعد سفهاً، فإذا أتلف وقته، والوقت أثمن من المال، يعد متلف الوقت أشد سفهاً من الذي يتلف ماله، لأنك أنت وقت، أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، أنت بالتعريف الدقيق وقت، أو أثمن شيء تملكه هو الوقت، أو رأسمالك الوحيد هو الوقت، وإضاعة الوقت من المقت، هذه حكمة أخرى - إضاعة الوقت من المقت - فأنت حينما تضيع وقتك تضيع نفسك.

( قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ )

( سورة الزمر الآية: ١٥ )

( أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) )

( سورة التكاثر )

فأنت وقت، وإضاعة الوقت من المقت، وإضاعة الوقت أخطر من الموت ، الموت يقطعك عن الدنيا، لكن إضاعة الوقت تقطعك عن الدار الآخرة.

### الوقت ينفق إنفاقاً استهلاكياً أو إنفاقاً استثمارياً:

بالمناسبة أيها الأخوة، الوقت يمكن أن ينفق إنفاقاً استهلاكياً، ويمكن أن ينفق إنفاقاً استثمارياً، ومعظم أهل الأرض ينفقون أوقاتهم إنفاقاً استهلاكياً، يأكل، ويشرب ، ويسترخي، ويفعل ما يريد، ويلتقي مع من يريد، ولا يقوم بأي عبادة، ولا أي طاعة، ثم يفاجأ بخبر صاعق سماه الله مصيبة الموت، والإنسان مادامت صحته مقبولة ينسى الموت ، أما حينما يأتي المرض إلى عضو خطير، أو إلى جهاز خطير، أو التقرير خطير، عندئذ ينسى كل شيء، فهذه الحقيقة المرة يؤكدتها النبي عليه الصلاة والسلام بحديث أنا والله أصف هذا الحديث أنه يقصم الظهر، يقول عليه الصلاة والسلام:

**(( بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، مَا يَنْتَظِرُ أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، هَلْ تُنْظَرُونَ إِلَّا فُقْرًا مُنْسِيًّا ))**

[أخرجه النسائي والحاكم وصححه المنوي في سند الترمذي عن أبي هريرة]

أنت الآن صحيح معافى، لك بيت، لك زوجة، لك أولاد، واليوم كالبارحة وغداً كالיום، لكن إلى متى هذا الوضع ؟ شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، رضيت أم غضبت، هناك تطور سيكون في المستقبل.

**(( ما ينتظر أحدكم من الدنيا ؟ ))**

أي مضي الأيام ماذا بعده ؟

**(( إِنْ غَنِيَ مُطْعِيًّا، أَوْ فُقْرًا مُنْسِيًّا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ))**

مرض عضال، انتهى، شلل، خثرة بالدماغ، فقد بصره، فقد سمعه، فقد ذاكرته، والعياذ بالله هناك أمراض تنسيك الدنيا بأكملها.

**(( أَوْ هَرَمًا مُقِيدًا ))**

تتقدم به السن، ولم يكن في شبابه على طاعة الله، ونعوذ بالله من خريف العمر، حشري، يعيد القصة مئات المرات، لا يحتمل، ثقيل الظل، يهرب أهله منه، ممكن،

**(( أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُقِيدًا ))**

(( ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنىً مطعياً، أو فقراً مُتْسِياً، أو مرضاً مُفْسِداً، أو هَرَمًا مُقَيِّداً، أو مَوْتًا مُجْهِزًا ؛ أو الدجال ))

كما تسمعون وترون، يطرح قيماً رائعة، يمارس ممارسات إجرامية، يقول لك: أنا أتيت من أجل الحرية، هذا الدجال.

(( شرُّ غائبٍ يُنْتَظَرُ ؛ أو السَّاعَةُ، والسَّاعَةُ أدهى وأمر ))

الإنسان وقت و كلما انقضى يوم انقضى بضع منه:

الآن حينما يقع زلزال ألا ترون ماذا يحصل ؟

( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) )

(سورة الحج)

أخواننا الكرام، وقع بالقاهرة زلزال، لي قريب هناك يقسم بالله العظيم أن امرأته من شدة خوفها عند وقوع الزلزال أخذت ابنها الرضيع، وانطلقت خارج البيت لا تلوي على شيء، وفي الطريق تبين لها أن الذي أخذته ليس ابنها الرضيع، بل حذاء زوجها،

( يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا )

زلزال باكستان، الأعاصير في أمريكا،

( وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ )

الله يحفظ بلادنا.

أيها الأخوة، إذا أنت وقت، فلما أن تنفق وقتك إنفاقاً استهلاكياً كما يفعل معظم الناس، وإما أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً، فتفعل في الوقت الذي سيمضي عملاً ينفعلك بعد مضي الوقت.

والحمد لله رب العالمين